

الجلسة الاولى

شرح خطبة المتقين

علي رضا بناهيان

بيان معنوى
Panahian.net

هذا الذي بين يديك أيها القارئ العزيز هو سلسلة أبحاث سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي رضا بناهيان في شرح خطبة المتقين لأمير المؤمنين (ع) حيث ألقاها في مسجد جامعة طهران.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وحبيبنا أبي القاسم المصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

عبر النظرة العامّية إلى المفاهيم الأخلاقية، يعتقد كثير من الناس أنهم بغنى عن التعلّم، بيد أن ساحة الأخلاق تنطوي على دقائق كثيرة لا ينبغي إهمالها. لقد تمّ اختيار خطبة المتقين في نهج البلاغة نصّا لهذه الجلسة العلمية، ولابدّ لي في البداية أن أقصّ عليكم حكاية هذه الخطبة.

قصة هذه الخطبة

كان «هَمّام» واحدا من الزهاد الثمانية الذين اشتهروا بالزهد في صدر الإسلام. كما كان أويس القرني أيضا أحد هؤلاء الزهاد والذي اشتهر صيته في عشقه للنبي الأعظم(ص). وبالإضافة إلى زهده كان همّام أحد أصحاب أمير المؤمنين(ع)، ونادرا ما يُذكر أحد أصحاب أمير المؤمنين(ع) ولا نجد فيه فضائل تميّزه عن غيره. في إحدى الجلسات التي اجتمع فيها همّام ونفر آخرون بأمير المؤمنين(ع)، قام همام إلى أمير المؤمنين(ع) وقال له: «صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِم»؛ يعني ارسمهم لي بدرجة من الوضوح والنصاعة حتى أستطيع أن أجسمهم وأصورهم في ذهني كأني أنظر إليهم. علما بأن رجلا مثل همّام لم يكن بعيدا عن التقوى والتمقين. إنه كان من الأتقياء وفي قمّة درجات الزهد الذي يمثّل أحد أهمّ عناصر التقوى. ولكن مع كل هذا أبدى هذا السؤال. إنه لم يطلب استماع وصف المتقين حتى يصبح متقيا، بل أراد بهذا الوصف أن ينظر إليهم. ولكن ما هي الثمرة الحاصلة من هذه المشاهدة؟ هذا ما لابدّ أن نقف عنده. الميزة الثانية الكامنة في سؤال همام، هو أنه لم يسأل وصايا في التقوى، بل أراد وصف المتقين. وهناك بون شاسع بين هذين. على أي حال سأل أمير المؤمنين(ع) أن يصف له المتقين كأنه ينظر إليهم بما يحظونه من روحانية ومعنوية، ولكن تثاقل أمير المؤمنين(ع) عن جوابه وقال له: « يَا هَمَّامُ اتَّقِ اللَّهَ وَ أَحْسِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ». ولكن

لم يقنع همّام بهذا الجواب وأصرّ وألحّ على أن يتفضل عليه بما سأله وطالبه، حتى أنه أقسم عليه وقال: « أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَكْرَمَكَ وَ خَصَّكَ وَ حَبَاكَ وَ فَضَّلَكَ بِمَا آتَاكَ لَمَّا وَصَفْتَهُمْ لِي». بعذ هذا الإصرار الشديد بدأ أمير المؤمنين(ع) خطبته بمقدمة لا علاقة لها بوصف المتقين. بدأ بخلق الخلق، وتطرق إلى العاصين والمطيعين. تحدث عن أهمّ نتائج الصالحات والسيئات، وذكر أمهات المعارف من نقطة الصفر إلى أن انتهى بشرح فضائل المتقين. فقال: «فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِل...» وانطلق من هذه العبارة إلى ذكر ١١۴ فضيلة من فضائل المتقين. وحري بالذكر هنا أن كلام أمير المؤمنين(ع) لم ينته، إذ أثناء حديث الأمير اعترت همّام حالة لا أعرف حقيقتها. إنه صعق صعقة كانت فيها نفسه. ولا يخفى أنه لم يكن همّام المستمع الوحيد لهذه الكلمات الرائعة بل كان معه آخرون، ولكن لم تؤثّر هذه الخطبة بهم هذا التأثير. ولهذا قال أمير المؤمنين(ع): «هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا». فقال رجل: « فَمَا بَالُكَ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِين»؛ يعني إن كان في هذا الكلام مثل هذا الأثر، فلماذا لم يؤثر عليك كما أثر على همّام؟! فقال أمير المؤمنين(ع): لكلّ أجل معلوم لا يسبقه ولا يتأخر عنه، ولكنه كان قد أشار في أوائل خطبته إلى أن المتقين على استعداد من الموت والطيران إلى السماء في كل آن، ولكن الله قد حبسهم في هذه الدنيا بالأجل الذي قدره لهم. إن الله قد قضى لهمّام أجله في تلك الساعة، ولكن جعل من فضائل همّام واستماع حديث أمير المؤمنين(ع) سببا في رحيله.

خصائص هذه الخطبة

١ـ وضوح مناخها

تنطوي هذه الخطبة على بعض الخصائص النادرة التي قلّ ما نجدها في خطبة أخرى من نهج البلاغة أو في سائر الروايات الأخلاقية. الخصيصة الأولى في هذه الخطبة هو الهدف والغاية من إلقائها، حيث قد بلغتنا قصتها وعرفنا السبب من إلقائها. بيد أن كثيرا من الروايات الأخرى قد وصلت إلينا بدون إشارة إلى مقام صدورها والقرائن المحيطة بها، فنقرأها ونستفيد منها دون علم بأسبابها ودوافعها. وهذا ما قد يسبب سوء فهم الروايات. إن فهم أحاديث أهل البيت أو فهم كلام العلماء العظام وحتى فهم آيات القرآن بشكل صحيح، بحاجة إلى الإحاطة بمناخها وقرائنها وهذا هو الذي يعبّر عنه في خصوص آيات القرآن بشأن النزول. بينما قصة هذه الخطبة قصة واضحة وصريحة وراقية جدا، فقد بلغنا مقام صدورها ودوافع إلقائها والأحداث التي أحاطت بها وهذا ما يمكّننا من استلهام دروس وحقائق كثيرة من هذه الخطبة. الخصيصة الأخرى في هذه الخطبة هو أن المخاطب ومستوى الكلام معلومان أيضا. فتارة ينقل عن أمير المؤمنين(ع) أنه قال: «اتَّقِ اللَّهَ بَعْضَ التُّقَى وَ إِنْ قَلَ وَ اجْعَلْ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللَّهِ سِتْراً وَ إِنْ رَقّ».[١] فلابدّ أن نعرف من يخاطب في هذه الوصيّة. إن كلام الأمير(ع) يختلف باختلاف مستوى مخاطبيه، فتارة كان يخاطب أهل الكوفة، وتارة كان يخاطب ولده. أما هنا فالمخاطب معلوم، وهذا ما يعيننا كثيرا على فهم مغزى الكلام. إن مستوى المخاطب عال جدا، وبطبيعة الحال لابدّ أن نفترض مستوى الكلام عاليا أيضا، وعليه فلا مجال لأحد أن يستغني عن معارف هذه الخطبة.



٢ـ شموليتها

الخصيصة الأخرى في هذه الخطبة هي شموليتها. فقلّ ما نستطيع أن نعثر على كلام يحظى بشمولية هذه الخطبة، بحيث يتطرق إلى العلاقات الاجتماعية ويخوض في علاقة الإنسان مع ربّه، بلا أن يغفل عن علاقة الإنسان مع نفسه، ويتناول العبادات الفردية والمعاملات الاجتماعية ومختلف المواضيع الروحية والنفسانية والصفات التي لا ينفك عنها الناس في كل شؤون حياتهم. إن شمولية هذه الخطبة لأمر عجيب. ولا يفوتنا هنا أن نعبّر عن أسفنا الشديد من موت همّام المفاجئ الذي حرمنا من باقي معارف هذه الخطبة، فيا ليت عليّاً كان قد واصل كلامه لنرى إلى ماذا ينتهي حديثه وما هي المعارف الرائعة التي تشرق عن فمه وشفتيه، فما من كلمة نطق بها أمير المؤمنين(ع) قد أخذت مأخذا من قلوبنا وأنارت دربنا وأتحفتنا بفوائد جمّة.

٣ـ أثرها

ومن الخصائص العالية جدا في هذه الخطبة، هو ما ذكرناه في قصتها. وهي أثرها العظيم والمشهود على المستمع. لقد تحدث أهل البيت(عليهم السلام) كثيرا ولكن لم يأتنا خبر أثر حديثهم على المستمع، بيد أن أثر هذه الخطبة قد ظهر على المستمع فورا، كما أن أمير المؤمنين(ع) نفسه قد أشار إلى نوعية أثر كلامه. هذه بعض خصائص هذه الخطبة التي قلّ ما نجدها في غيرها من الخطب والروايات. بالإضافة إلى هذه الخصائص التي تمتاز بها هذه الخطبة عن غيرها، هناك خصائص أخرى في هذه الخطبة تشترك بها كثير من الخطب والكتب و الروايات الأخرى. وحري بنا أن نقف عند هذه الفئة من الخصائص أيضا قبل الدخول في شرح الخطبة.

٤ـ صبغتها العرفانية

إحدى هذه الخصائص هي صبغتها العرفانية. فقد نسجت هذه الخطبة من الكلمات والأبحاث الأخلاقية وبصبغة عرفانية. وهناك بون شاسع بين الأبحاث الأخلاقية ذات الصبغة العرفانية وبين التي تفتقد هذه الصبغة. فتارة توصي أحدا وتقول له: إن شئت أن تحفظ عزتك بين الناس، لا تمدّن يدك إلى أحد أبدا. إنها وصية أخلاقية بلا صبغة عرفانية. وتارة تطرح بحثا عقديا كما لو تحدثت عن عدل الله وتقول: ليس الله بظلام للعبيد وغاية الأمر هو أن تقتضي حكمته أن يفعل أمرا ما. لا سبيل للظلم إلى الله، إذ إن الظلم ضرب من النقص وسبحان الله عن أي نقص... هذا بحث عقدي، وهو دفاع عن عدل الله، ولكنك تارة تتحدث عن الله والمسائل الأخلاقية بصبغة عرفانية. ومن نماذج الصبغة العرفانية في الأبحاث الأخلاقية هو أن يقول أحد: من القبيح جدا أن نمدّ أيدينا إلى أحد سوى الله غافلين عن كونه ربنا وصاحبنا ومالك رزقنا. وأساسا إن مدّ اليد إلى الغير بمرآى رب الأرباب ورب العالمين هي غاية الخزي والعار الذي يمكن أن يحيط بالإنسان. إن هذا الكلام هو نفس الوصية الأخلاقية الأولى التي مرّ ذكرها، ولكن قد صحبته صبغة عرفانية.وكذلك الأمر في هذه الخطبة فقد نسجت عباراتها بصبغة عرفانية، وهذه من الخصائص الممتازة التي لا تخفى عليكم مواطن فائدتها، ولا سيما في هذا العصر الذي بات ينزع الإنسان فيه إلى الأبحاث المعنوية والعرفانية. فمن شأن هذه الخطبة أن تحلّ عقدا كثيرة في مثل هذه الأجواء.

٥ـ عدم تقيدها بنطاق محدود

ومن خصائصها الأخرى هي أنها غير محدودة في نطاق زمني أو مكانيّ خاص. فهي لم تختص بهمّام ولا تختصّ بزمانه ولا بفئة معينة من المؤمنين. إنها تجري في كل زمان ومكان. طبعا نوعية معارفنا الدينية هي أنها غير محدودة بموقع خاص، ولكن يبدو أن هذه الخطبة تفوق كثيرا من النصوص والمعارف من هذا الجانب. فكن من شئت واصب إلى ما شئت واختر ما شئت من عمل ومهنة، فإنك لست بغنى عن الكمال في الإنسانية، ولست بغنى عن التقوى في حياتك، فلابد أن يصوّر لك الإنسان المتقي وهذا ما ينفع كلّ من يجرّب العيش والحياة.

٦ـ لحنها وموسيقيتها

من الخصائص الأخرى في هذه الخطبة هي أنها بالإضافة إلى ما تنطوي عليه من حكم رائعة، ذات لحن وموسيقية جميلة أيضا. فإن أمير المؤمنين(ع) قد نظم هذه الخطبة ونسج عباراتها بلحن ووزن جميل، ولم يطرح بعض المفاهيم وحسب. فإن ألفتموها وأنستم بها سوف تجدون حلاوة لحنها وجمال موسيقيتها ونظم نسقها الرائع. من هذا المنطلق بودّي أن أقدم وصية لكم وهي أن احفظوا هذه الخطبة واقرأوها باللحن والطور الذي تفتضيه روحكم. وسوف تشعرون بمدى حاجة روحكم إلى أمثال هذه الموسيقى العذبة وسوف ترون كم تنتعش نفسكم بهذه الأغنية الطويلة، وسوف تسقط من أعينكم باقي الأغاني والأشعار الطفولية وتفقد رونقها وموقعها في نفوسكم وقلوبكم بعد ما احتلتها هذه الخطبة واستأنستم بها بدلا عن باقي الألحان والأطوار.

٧ـ كونها وصفا لا توصية

وإلى جانب هذه الخصائص، تتصف هذه الخطبة بكونها وصفا لا وصية. إن الوصية لا تنفع من لم يستعدّ لاستماعها وقبولها. إنها بحاجة إلى ظروف أصعب. طبعا وبالتأكيد إنها مفيدة وضرورية جدا، ولكن قلّ ما تتوفر مع شرائطها وأسبابها. ولكنّ الكلام بصيغة الوصف لا يحتاج إلى شروط معقدة وبالإضافة إلى ذلك إنه أسهل نفوذا وأعمق تأثيرا في القلب ولا ينجلي أثره سريعا. وإن هذه الخطبة لخطبة وصفية في فضائل المتقين فتصف المتقين ولا توصي بالتقوى. ولهذا فلا يملّ الإنسان منها أبدا.

نصيحتان أقدمها لكم

النصيحة الأولى هي التي قدمتها حين البحث وهي أن احفظوا هذه الخطبة. أما النصيحة الثانية هي أن فرّقوا بين فهم هذه الخطبة وبين التأثّر بها. فحاولوا أن تفهموها وتدركوها عبر هذه الأبحاث، ولكن إلى جانب هذه الأبحاث أعدّوا برنامجا للتأثّر بها والانتفاع من منهلها. فاخلوا بهذه الخطبة ساعة، واسمحوا لأمطار فضائل كلام أمير المؤمنين(ع) أن تمطر على قلوبكم وتذهب بكم إلى ما تشاء من الحسن والفضل والكمال. لابدّ من قراءة خطبة المتقين في جلسة واحدة، إذ ليس في تقطيعها وتقسيطها تلك الفائدة الرئيسة المترتبة على قراءة الخطبة كاملة. اخلوا إليها وأنسوا بها ساعة واسمحوا لها أن تترك أثرها العميق في نفوسكم. هذه في الواقع هي وصفة استعمال هذا الدواء. فلا يكفي فهم هذه الخطبة بل لابدّ من تذوّقها، بعد إدراك معانيها. فأرجوا أن تكون هذه الأبحاث مقدمة لهذا الأمر إن شاء الله.



منهجنا في شرح الخطبة

١ـ تجنب الشرح التبليغي الخطابي

نسعى في هذه الأبحاث أن نأخذ منحى الشرح والتبيين لا التبليغ. فلا نريد أن نرتقي منبرا أو نلقي محاضرة، كما لسنا بصدد استخدام أساليب الجذب حين طرح الأبحاث. نحن نسعى أن نواجه عبارات هذه الخطبة بكل موضوعية، فنتناول النقاط والمضامين الكامنة بين أحشاء عبارات الخطبة.

٢ـ تجنب الشرح الاستطرادي

النقطة الثانية هي أننا نحاول أن نبتعد عن منهج الشرح الاستطرادي. فقد شرح بعض الشارحين هذه الخطبة بهذا الأسلوب. فلما قال أمير المؤمنين(ع): «منطقهم الصواب»، استعرض جميع إيجابيات وسلبيات اللسان فابتعد تماما عن سياق الخطبة وروحها. طبعا إن هذا الأسلوب لا يخلو من النفع والفائدة، ولكنه ليس شرح خطبة المتقين، بل هو طرح مجموعة كبيرة من المفاهيم الأخلاقية بحِجّة خطبة المتقين. منهجنا هو الاختصار على ما يمتّ بهدف الخطبة بصلة، وعليه فسوف نجتاز كثيرا من العبارات بشرح مختصر بلا أن نشير إلى بعض المفاهيم المشهورة.

٣ـ الالتفات إلى تركيب العبارات مع بعض

النقطة الأخرى التي لابدّ أن نهتمّ بها في مقام شرح الخطبة هي أنه يقتضي المقام نوعين من التأمل والإمعان، تأمل في تجزئة الكلام، وتأمل في التركيب. نحن سوف نقف عند مفردات الخطبة بشكل موجز، ولكن الأمر الذي بودّي أن لا نغفل عنه هو التأمل في تركيب هذه الفضائل مع بعض. فلابدّ أن نرى كيف نظم الإمام هذه المنظومة لفضائل المتقين، فبأي فضيلة بدأها وبأيهم ختمها ومتى جعل كل واحدة منها.

وكذلك لوقوف الإمام وابتدائه أثناء إلقاء الخطبة شرح وكلام لابدّ من الوقوف عنده ولعلنا نتطرق إلى بعض زواياه، إذ قد خفيت معان كثيرة في هذه الرؤية إلى خطبة المتقين.

٤ـ التطرق إلى طرق الوصول إلى كلّ من الفضائل

النقطة الأخرى التي نسعى للتطرق إليها باختصار، هو طريق الحصول على كل فضيلة يشير إليها أمير المؤمنين(ع)، كما سوف لا نترك منهج الإيجاز في ذكر الطرق أيضا. وبهذا المنهج سوف يتجهّز القارئ الكريم بأمهات الطرق والأصول الرئيسة التي يحتاجها الإنسان في تكامله المعنوي.

٥ـ نظرة إلى الرذائل الأخلاقية

وهناك أمر لم يقم به الإمام أمير المؤمنين(ع) في خطبته، ولكن لا مناص لنا من إهماله، وهو نظرة خفيفة إلى الرذائل الأخلاقية المضادّة لما طرحه الإمام من فضائل. لقد أشار أمير المؤمنين(ع) إلى الفضائل، ولكن في سبيل بيان هذه الفضائل وفهمها لابدّ لنا من الإشارة إلى الرذائل كي نزداد كرها لها ونفرّ منها إلى الفضائل.

السؤال والسائل

بقدر ما يكون السؤال جيدا، قد يكون سيئا. وبقدر كون السؤال الجيد علامة الشوق، إنه علامة النفرة. إن السؤال بقدر ما يدفع الإنسان إلى الأمام، يرجعه إلى الوراء. وبقدر ما ينتج السؤال علما، ينتج جهلا. ولعلّ من هذا المنطلق قال رسول الله(ص): «حُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ».[٢] ليس السؤال بجيد في كل مقام. ولكن السؤال الجيد أفضل من السكوت بكثير. السؤال الجيد عينٌ تفور منها المعارف. وحري بالذكر هنا أن السؤال الجيد يلقي الحكمة في قلب من خوطب بالسؤال فضلا عن السائل.

قيموا أسئلتكم

ينبغي لنا أن نطرح أسئلتنا على إنسان واع فاهم ليقوم بنقدها وتقييمها. فلنعرض عليه أسئلتنا ونقول له: لدينا أمثال هذه الأسئلة، فكم هي علامة لنقصاننا؟ وكم هي علامة لكمالنا؟ وكم هي تدل على اعتدالنا الفكري والروحي؟ وهكذا... إن السؤال باب واسع وفيه كلام كثير. إن سؤال همّام قد فتح علينا هذه الآفاق المباركة. إنه كلام أمير المؤمنين(ع)، ولكن كل من وقف عند هذه الخطبة وانتفع ببركاتها وعلومها وآثارها فقد أشرك همّام في ثوابه، إذ هو الذي سأل أمير المؤمنين(ع) هذا السؤال الخالد. نحن لم نسمع باسم همّام ضمن باقي أصحاب أمير المؤمنين(ع) في مواطن أخرى ولكن هذا السؤال العظيم قد خلّده في صفحات التأريخ.

يحكي السؤال عن ضمير السائل

تنطلق بعض الأسئلة من مصدر روحي، بينما تنطلق بعضها الأخرى من منشأ فكري. فما هي الأسئلة الناشئة من مصدر روحي؟ وأنا أعتقد أن الله يقيّمنا وينعم علينا على أساس ما يختلج في نفوسنا من أسئلة ومطالبات. فهناك بون شاسع بين من يسأل الله أن يرزقه بيتا مَهْما كانت مواصفاته، وبين من يسأله بيتا جيّدا. ففي بعض الأحيان طلب القليل لا يحكي عن قناعتنا بل يحكي عن دناءتنا. فقد يدل على عدم الإيمان بسخاء الله، فنخفف عليه السؤال كي يعطينا المراد. وكذا الحال في الأسئلة العلمية، فإنها تحكي عن ضميرنا. فما هي أسئلتنا وأي مجهول يؤلمنا. فمن جملة ما كان يريد أمير المؤمنين(ع) معرفته، هو أنه هل قد رضي الله عنه أم لا؟ أو لماذا خلقه الله، هل خلقه للجنة أم خلقه للنار؟

أطيلـوا الوقـوف عنـد السـؤال وأسـأل اللـه أن يفتـح عليكـم أبـواب السـؤال التـي هـي بمثابـة عيـون الحكمـة في القلـوب. وقـد قـال شراح نهـج البلاغـة: أحـد أسـباب تثاقـل أمـير المؤمنـين(ع) عـن جـواب هـمام هـو أن يبلـغ الـذّروة في عطشـه. فقـد أجابـه أمـير المؤمنـين(ع) بجـواب مختـصر ليذهـب عنـه، ولكنـه بقـي ملحّـا ونـال بإلحاحـه كل شيء. أسـأل اللـه سـبحانه وتعـالى أن يفتـح علينـا أبـواب السـؤال التـي هـي أبـواب رحمتـه، وأن يثـير في قلوبنـا تلـك الأسـئلة المؤديـة إلى أحسـن الأجوبـة في العـالم وأهنئهـا لقلوبنـا الضمآنـة. والسـلام عليكـم ورحمـة اللـه وبركاتـه.

[١] . غرر الحكم ودرر الكلم، ص ١٣٨.

[٢] . كنز الفوائد، ج ٢، ص ١٨٩.



هذا الذي بين يديك أيها القارئ العزيز هو الجلسة الثانية من سلسلة أبحاث سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي رضا بناهيان في شرح خطبة المتقين لأمير المؤمنين(ع) حيث ألقاها في مسجد جامعة طهران.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وحبيبنا أبي القاسم المصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

عند ما يعزم أمير المؤمنين(ع) على صنع خطبة ذات موسيقية ومفاهيم فاخرة نابعة من صميم قلبه، بطبيعة الحال تصبح هذه الخطبة خطبة إعجازية. ولهذا السبب نرى أثرها الإعجازي وهو موت همّام حبا وعشقا، حيث كان هو السائل والمخاطب الأول لهذه الخطبة الرائعة. وقد أشار أمير المؤمنين(ع) إلى أثرها الغريب حيث قال: «هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا».

اغتنموا جمال هذه الخطبة

من خصائص هذه الخطبة هي أنها تطرح المعارف العالية والسامية بأسلوب جميل جذّاب، وهذا ما لا ينبغي أن نمرّ منه مرور الكرام. من نصائحي لكم أيها الشباب أن لا تأخذوا المعارف الدينية باردةً، خذوها على أوج حرارتها ونضارتها وطعمها وعطرها. فقد اتخذ الله هذا الأسلوب في القرآن وطرح معارفه بهذا الشكل. وكذلك نرى أمير المؤمنين(ع) في نهج البلاغة وباقي أئمتنا في أدعيتهم المأثورة عنهم قد انتهجوا هذا المنهج في طرح المعارف الإلهية. كان يوصي إمامنا الراحل أولاده أن لا يوقضوا أطفالهم لصلاة الصبح بعنف وشدّة، إذ قد يؤدي إلى مرارة نكهتها في مذاقهم. أنا لا أعرف كيف أقيّم الدروس الدينية الجامعية أو الأبحاث التي يطرحها علماؤنا العظام والتي تتصف بنسبة من البرود بحسب ما يقتضيه طابعها العلمي. ولكن أقترح عليكم أن تجربوا هذه المعارف المودعة في أحشاء الكتب والمقالات، بطبيعتها الحارّة النضرة، وبعد ذلك ارجعوا إلى كتبكم وراجعوها كما هي عليه من برود طابعها العلمي. إن الاكتفاء بالأسلوب العلمي البارد في أخذ المعارف الإلهية لا يخلو من تداعيات سلبية على الإنسان. فإن أخْذ الحكم والمعارف المجرّدَة عن جمالها ومشاعرها وإحساسها والاكتفاء بهذا النمط من الطرح مضرّ جدا. إن مثل هذه الخطبة لفرصة ثمينة وضرورية في نفس الوقت للإنسان كي يستلم معارفه الدينية محفوفة

بهالة من الجمال والمحبوبية. ولابدّ لنا من سعي متواصل دائم في هذا المسار. لقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: (وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإيمانَ وَ زَيَّنَهُ في قُلُوبِكُم).[١] فشاء الله أن يكون الإيمان جميلا وحبيبا في قلوبكم. وإن خطبة المتقين المباركة تعيش هذه الأجواء، فحاولوا أن تغتنموا هذه الخصيصة إلى جانب باقي خصائصها التي مرّ ذكرها في الجلسة الماضية. اجعلوها نغمة قلوبكم. لا أريد في هذا المقام أن أحرق قلبي شفقة على الأغاني والنغمات الدانية والهابطة في مستواها، بل يحترق قلبي على أنفسنا حينما تألف هذه الأغاني الفارغة ما تؤدي إلى عواقب خطيرة جدا. فلا يمكن التفكيك بين العلم والفكر وبين الإحساس، ولم تنفك يوما. جاء في الخطبة ١٩٣ من نهج البلاغة: «رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ وَ كَانَ رَجُلًا عَابِدا»، وقد سبق أن همّام كان أحد أزهد أربعة من زهّاد صدر الإسلام. «فَقَامَ إِلَيْهِ وَ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِم».

أقسام الأسئلة

١ـ الأسئلة الدانية

السؤال على أنواع؛ فبعض الأسئلة مدعاة للتطور والارتقاء، وبعضها مدعاة للتراجع والهبوط. وإن اختلافها راجع إلى اختلاف دوافعها وحوافزها. الأسئلة التي تطرح بدوافع رجعية، تنشأ من كون الإنسان يخالف حقا، ثم يطرح الأسئلة واحدا تلو الآخر ليشكك في ذاك الحق. فعلى سبيل المثال يعتقد بعض علماء فلسفة الأخلاق، إن مصدر تبلور هذا العلم؛ أي علم فلسفة الأخلاق هو أن الناس أصبحوا لا يطيقون بعض الأحكام الأخلاقية، فأقبلوا يتساءلون من قال أن لهذا العمل قيمة؟! ومن قرّر على أن يكون هذا العمل قيّما؟! كان هذا السلوك قيما في ما مضى أما الآن فليس من المعلوم أنه قد بقى على حاله.

ما هو المعيار في تقييم الأعمال الجيدة والسيئة؟ وهل يمكن تغيّر هذه المعايير؟... وهكذا فتح باب فلسفة الأخلاق. إن منطلق معظم هذه الأسئلة هو مخالفة الإنسان للأحكام الأخلاقية. فإن أمثال هذه الأسئلة تطرح في سبيل التراجع لا التقدّم. بينما الإنسان الرشيد لا يطرح مثل هذه الأسئلة المنطلقة من دوافع التراجع، ولا تتبادر في ذهنه أبدا. فمن خصائص هذا النمط من الأسئلة هو إنك إن حصلت على أجوبة ستين سؤال من هذا النوع ما زلت لم تتحرك من نقطة الصفر. إن استفحلت ونشطت النفس الأمارة والرذائل في وجود الإنسان، وخرج الإنسان عن اعتداله يكثر في طرح الأسئلة بدافع التراجع.

مضارها:

إن هذه الأسئلة لا تضيّع وقت الإنسان وحسب، وليس ضررها الرئيس هو ضياع الوقت، بل أهمّ ضررها هو أن الإنسان بعد ما طرح أسئلته هذه قد يحصل على بعض الأجوبة الظّنية غير القطعية، ثم يتحجّر على هذه الأجوبة ويتعلق بها، أو يعشقها ولا ينفكّ عنها. هذه قاعدة مهمة وهي أنه إذا تبادر لك سؤال بدافع مخالفة الحق والتمرد عليه، عند ذلك سوف تتعلق بأسوء الأجوبة له وأكثرها بطلانا. وعليه فمن المهمّ جدا أن نسعى لمنع تبلور أمثال هذه الأسئلة في أذهاننا.

قيموا أسئلتكم

ليس كل سؤال بحري أن يطرح، فقد قال رسول الله(ص): «حُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ». [٢] ولهذا فحري بالإنسان أن يعرض أسئلته على أستاذ في الأخلاق أو أستاذ في السير والسلوك المعنوي ليرى كيف يقيّم أسئلته. لا داعي لأن يجيب عن الأسئلة بل المهم هو أن يقيّم الإنسان من خلال أسئلته ويطلعه على روحياته ونزعاته التي خفيت عليه. إذ تنعكس صفات الإنسان وروحياته ومناخه الفكري والعقدي على أسئلته بكل وضوح.

٢ـ الأسئلة الفارغة

هناك فئة أخرى من الأسئلة لا تنطلق من أمراض ورذائل أخلاقية كالقسم الأول، ولكنها أسئلة لا فائدة لها. وهي الأسئلة التي تثار وتطرح بسبب النسيان. كالإنسان الذي يسأل عن عنوان ما، فتدلّه على ضالته ولكن سرعان ما ينسى العنوان فيرجع ويكرر سؤاله. ثم تدلّه على ضالته مرة أخرى فينسى كما نسي من قبل وهكذا! فهل يمكن أن نعتبر أسئلته هذه حبّا للعلم والمعرفة؟! النموذج الآخر من أمثال هذه الأسئلة غير المفيدة ولعله أكثر انسجاما ببحثنا هذا، هو السؤال الناجم من عدم الفكر. وهو السؤال الذي يطرحه الإنسان لا عن وعي ودراية وتأمل، بل عن عدم فكر. ولهذا كان العلامة الطباطبائي(رض) يقول: كنت أكتم أكثر أسئلتي ولم أبدها، حتى أجد جوابها. ذات يوم قال لي شخص: عندي أسئلة في ولاية الفقيه. قلت له: كم كتاب قرأت؟ قال: لم أقرأ شيئا. فقلت له: إذن أنا لا أجيب عن أسئلتك. قال: لماذا لم تحترم أسئلتي؟ فقلت له: ولماذا أنت لم تحترم أسئلتك؟ ولماذا لم تحترم وقتك؟ كم هو موضوع مهم لديك حيث لم تقرأ فيه كتابا واحدا؟!

٣ـ الأسئلة السامية

أما الفئة الثالثة من الأسئلة فهي الأسئلة التي تطرح بدافع التقدم والارتقاء. فإنها أسئلة ثمينة قيمة لابدّ من معرفة قدرها. إنها نور في قلب من تبادرت إليه. فبمجرد أن حقّق الإنسان في أسئلته هذه يمتلئ نورا، وكذلك إن حصل على الجواب فقد حصل على نور.

أدب التعامل مع الأسئلة السامية

إن الاستعجال في إبداء هذه الأسئلة السامية قد ينقص من ثمن جوابها لدى رؤية الإنسان. فلنروّض أرواحنا بهذه الأسئلة فترة، ولنعجن أسئلتنا ونروّضها بالفكر والتأمل كي نزداد شوقا للجواب. فلا تتستعجلوا بالخلاص من السؤال. حيث إن هذا العذاب الذي يلقيه السؤال في وجودك نور في الواقع. يعجبني كثيرا بعض الشباب عندما يأتيني ويقول: «هناك سؤال يعتلج في قلبي منذ سبع أو ثمان سنين، فمهما حاولت أن أحصل على جوابه لم أستطع». هذا سؤال قيّم. وقد ذكر شرّاح نهج البلاغة أن أمير المؤمنين(ع) قد تثاقل عن الجواب ليزداد همّام عطشا ويزداد الجواب أثرا. إن هذه الأسئلة لا تخلو من بعض الألم والعذاب على الإنسان ولكن ألمها جميل ينبغي أن نتحمله. فإنه ينوّر قلب الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، لماذا يستعجل الإنسان في طرح بعض الأسئلة طمعا بالجواب؟ فإن دققنا النظر في بعض هذه الأسئلة ـ التي هي ليست من نمط الأنواع السيئة الأولى ـ نجدها مشوبة ببعض الشرك الخفي. فعلى سبيل المثال تجده يبحث عن زمن موته ويسأل متى أموت. فإذا أردنا أن نحلّل سؤاله بكل ما تحيط به من دوافع ونوايا، كأنه يقول: أريد أن أخلص من خوفي من الله والتوكل على الله والثقة بالله والاستغاثة بالله. أريد أن أدبر أموري بنفسي وأطلع على مصير حياتي بالكامل. أو قد يسأل: هل أن الله راض عني أم لا. لماذا يسأل هذا السؤال؟ إنه سؤال جميل ولكن ينبغي للإنسان أن يصبر عليه. فقد شاء الله أن لا يجيبنا عن هذا السؤال، وإلا فليس من الصعب عليه أن يطلعنا على رضاه أو عدمه تجاهنا. كان يقدر على أن يخلق لكم ملائكة بعدد شعر رؤوسكم ليجيبوا عن أسئلتكم في كل آن ولحظة. فهل تتصورون أن قد عازه ملائكة فلم يرسلهم؟! إنه كان قادرا على كل هذا ولكن من المؤكد أن هناك نور في هذا الغموض. فلعل إصرارك على هذا السؤال يدل على أنك بصدد التخلص من أعباء العلاقة الجميلة بالله، عبر بعض المعلومات. إذ بعض أنواع الجهل تارة يزيد من جمال علاقة العبد بمولاه.

راجعوا خطبة القاصعة لأمير المؤمنين ففيها إشارات إلى هذا المضمون. و تارة سؤالك جيد، ولكن ليس علاجه طرحه و إبداءه. فقد ورد عن أهل البيت(ع): «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَم».[٣] كما كان الشيخ بهجت(رض) يؤكد على هذا الحديث وكثيرا ما أجاب سائليه بمضمون هذه الرواية. فطريق الحصول على جواب بعض الأسئلة السامية ليس السؤال، بل العمل بالعلم، ولا سيما في المسائل المعنوية فإن عملت بمقتضى معرفتك وعلمك تحصل على باقي المعارف والعلوم بحسب عملك. وإلا فإن سألنا بلا عمل وأعطينا الجواب يخاف علينا أن لا نقتنع بالجواب، أو نقتنع به ولا نؤمن به، أو نؤمن به ولا نعمل به ما يؤدي إلى تفاقم أمراضنا ورجوعنا إلى الأسوء. ولهذا قال أمير المؤمنين(ع): «إِنَّكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا عُلِّمْتُمْ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى تَعَلُّمِ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».[٤] في حديث عنوان البصري عن الإمام الصادق(ع) وهو حديث عرفاني معروف، وكان العلامة القاضي(رض) يوصي تلامذته بحمله وقراءته يوميا، جاء فيه أن الإمام الصادق(ع) لم يستجب لعنوان في المرة الأولى. أما في المرة الثانية فأجابه وقال له(ع): «ليس العلم بالتعلم إنما هو نور يقع فى قلب من يريد الله تبارک و تعالى أن يبديه فإن أردت العلم فاطلب أولا من نفسک حقيقة العبودية و اطلب العلم باستعماله و استفهم الله يفهمک».[٥] هذا النمط من العلم هو ما يسمّى بالعلم اللدنّي، أو الفرقان والبصيرة.

قف عند دوافع السؤال والنوايا المحيطة به

إن همام قد سأل وصف المتقين لا توصية أو موعظة في هذا المجال. فنحن نرى أكثر الناس يبحثون عن الوصايا في مسار السلوك المعنوي. أما همام فقد سأل سؤالا آخرا. لم يقل لأمير المؤمنين(ع): كيف أصبح متقيا؟ بل قال: صف لي المتقين. وهل توافقونني بأن لا يخطر على بالنا أمثال هذا السؤال؟ فنحن لا نبحث عن وصف المتقين أو المؤمنين عادة، ولكن لماذا؟ نحن نبحث عن طرق الصلاح وأساليب النجاح وهكذا.

فإذا أمعنا النظر ودققنا في خفايا نوايا الإنسان وزوايا مشاعره لعلنا نجده يريد التخلص من قيود العبودية وأعبائها، أو يريد أن يمتحن في هذه المادة ويخلص منها ومصاعبها. وهذا يحكي عن نظرتنا الخاطئة لحقائق الدين والعبادة. ليس أمامنا هدف الوصول إلى الله ولقائه. وإنما هو مسير وحركة إلى الله. ولكن كثير من الناس يسألون عن سبيل الله لكي يخلص من الحركة والسير في هذا الدرب يوما ما! وهل في هذا الدرب إزعاج وشرّ حتى يبغي الخلاص منه. من الذين لا يتحملون مصاعب هذا الدرب وأعباء الطريق؟ أتعرفون من هم؟ أولئك الذين لا يطيقون الخوف والشوق في سبيل الله؟ أولئك الذين لا يطيقون صمت الله والغموض الذي يحيط بالعبد في حركة عبادته. انظروا إلى أدعية أهل البيت وحتى إلى أشعار العرفاء وعبّاد الله، حيث كانت حياتهم كلّها توسلا وإصرارا وطلبا وكأن لم تنفكّ من عقدهم واحدة. لابد أن نرصد نوايانا الخفية في زوايا السؤال مخافة أن لا يمتزج سؤالنا عن الطريق، بأمثال هذه النوايا الباطلة. فقد سئل الإمام الصادق(ع): « قِيلَ لَهُ أَيْنَ طَرِيقُ الرَّاحَةِ فَقَالَ ع فِي خِلَافِ الْهَوَى قِيلَ فَمَتَى يَجِدُ عَبْدٌ الرَّاحَةَ فَقَالَ ع عِنْدَ أَوَّلِ يَوْمٍ يَصِيرُ فِي الْجَنَّةِ». فهذا السائل وإن سأل عن الطريق ولكن في واقع أمره كان يبحث عن أصل الراحة لا عن طريقها.

وطن نفسك على مصاعب الدرب

أثناء حركتكم في طريق الكمال المعنوي، أظهروا رضاكم عن هذه المصاعب أمام الله وعبروا عن فرحكم وبهجتكم بهذه الآلام، عند ذلك سوف تجدون زوال مصاعبكم الهابطة والدانية وتستبدل بعد ذلك بمصاعب راقية وسامية. فإذا دخلتم في هذا الطريق وطّنوا أنفسكم على كل مصاعبه ومحنه وآلامه. ولا يخفى أن في مصاعب هذا الطريق لذة لا تجدونها في أية لذة أخرى. فقد يتصور بعض الناس البعيدين عن هذه الأجواء أن مصاعب هذا الطريق مرّة، كلا وبالعكس.



ابحث عن الحافز بدلا عن الطريق

مـن المؤكـد أن قـد تبـادرت إلى هـمّام أسـئلة كثـيرة بعـد مـا بـدأ أمـير المؤمنـين(ع) بوصـف المتقـين، حيـث كل مـا مـرّ أمـير المؤمنـين(ع) مـن فضيلـة مـن فضائلهـم: كان يسـأل هـمام في ضمـيره كيـف قـد نـال المتقـون هـذا المقـام وكيـف حصلـوا عـلى هذه الفضيلـة؟ فهـذا سـؤال مـن شـأنه أن يأنـس بـه الإنسـان أكـثر مـن أن يطرحـه ويبديه. فـما يمنعنـا مـن نيـل هـذه الفضائـل في كثـير مـن الأحيـان ليـس جهلنـا بالطريـق بـل فقـدان الحافـز. فبـاع هـمام كياسـة وسـأل عـن أوصـاف المتقـين ليـزداد حافزه وشـوقه إليهـم، فكانـت مبـادرة جميلـة جـدا منـه. إني أقبّـل يـدي هـمام ورجليـه حيـث قـد واجـه الإمـام بهـذا السـؤال، فكـم كان مبـاركا في سـؤاله فـكل هـذه الخطبـة الرائعـة التـي خلـدت في التاريـخ وبلغـت الشـيعة عـلى مـرّ الدهـور كانـت ببركة هذا السـؤال.

شأن النظر والمشاهدة في القضايا المعنوية

كان هـدف هـمّام مـن اسـتماع وصـف المتقـين هـو المشـاهدة حيـث قـال: «صـف لي المتقـين كأني أنظـر إليهـم». فلابدّ أن نتأمل قليلا في هذا الهدف. إن النظر والمشـاهدة في كثـير مـن المجـالات المادّيـة هـي آلـة وطريق ولا غـير. فعلى سـبيل المثال عندما تسـمع بجهـاز جـوال جديـد، وتسـمع بمواصفاتـه تودّ أن تـراه. فالرؤيـة طريق للـشراء والشراء طريـق للاسـتخدام في هـذه المجـالات. ولكـن في القضايـا المعنويـة لم تعـد المشـاهدة طريقـا بـل هـي الغايـة. فما أراد هـمّام أن ينظر إليهم ليحسّـن سـلوكه أو ليقتدي بهم، بـل رمـى إلى الغايـة القصـوى وهـي رؤيـة المتقـين. النظـر هـو الهـدف وهـو المقصـود.

إن لقـاء اللـه والنظـر إلى وجـه اللـه ليـس مـن قبيـل مشـاهدة الطعـام الـذي هـو مقدمـة لأكلـه. وكـذا الحـال في لقـاء المتقـين فهـو غايـة قصـوى ليـس وراءهـا هـدف آخـر. ولا يخفـى أن كل هـذا الـكلام مرتبـط بالشـهود القلبي. هـذه الرؤية والمشـاهدة هـي التـي يتلهـف لهـا عشـاق الإمـام المهـدي (عـج). أمـا أنـا المسـكين فأطلـب رؤيتـه لأسـأله بعـض الأسـئلة أو أطلـب منـه بعـض الحاجـات. أمـا عشـاق الإمـام فيَصْبـون لرؤيتـه لا لـشيء آخـر، بـل مجـرد النظـر إليـه (بعـين البصـيرة والقلـب) تمثـل أقـصى غاياتهـم. ولأنقـل لكـم هـذه الروايـة: «جَـاءَ رَجُـلٌ مِـنَ الْأَنْصَـارِ إِلَى النَّبِـيِّ (صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَ آلِـهِ)، فَقَـالَ: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، مَـا أَسْـتَطِيعُ فِرَاقَـكَ، وَ إِنِّي لَأَدْخُـلُ مَنْـزِلِي فَأَذْكُرُكَ، فَأَتْـرُكُ ضَيْعَتِـي وَ أُقْبِـلُ حَتَّـى أَنْظُـرَ إِلَيْـكَ حُبّـاً لَـكَ، فَذَكَـرْتُ إِذَا كَانَ يَـوْمُ الْقِيَامَـةِ وَ أُدْخِلْـتَ الْجَنَّـةَ فَرُفِعْـتَ فِي أَعْـلَى عِلِّيِّـينَ، فَكَيْـفَ لِي بِـكَ يَـا نَبِـيَّ اللَّـهِ فَنَزَلَـتْ «وَ مَـنْ يُطِـعِ اللَّـهَ وَ الرَّسُـولَ فَأُولئِـكَ مَـعَ الَّذِيـنَ أَنْعَـمَ اللَّـهُ عَلَيْهِـمْ مِـنَ النَّبِيِّـينَ وَ الصِّدِّيقِـينَ وَ الشُّـهَداءِ وَ الصَّالِحِـينَ وَ حَسُـنَ أُولئِـكَ رَفِيقـاً» فَدَعَـا النَّبِـيُّ (صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَ آلِـهِ) الرَّجُـلَ، فَقَرَأَهَـا عَلَيْـهِ، وَ بَـشَّرَهُ بِذَلِـكَ.»[٦]

إللهم ارزقنا منية اللقاء والشهود

إن هـذا الدعـاء يشـمل مـا سـواه مـن أدعيـة إن اسـتجيب. اللهـم ابعـث في قلوبنـا عطـش لقائـك ولقـاء أوليائـك. اللهـم ضاعـف في قلوبنـا شـوق زيارتـك وزيـارة أوليائك يومـا بعـد يـوم. وصـل عـلى محمـد وآل محمـد. اللهـم صـل عـلى محمـد وآل محمـد وعجـل فرجهـم.

[١] . الحجرات، الآية ٧. [٢] . بحار الأنوار، ج١، ص٢٢٤. [٣] . بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٨٩. [٤] . عيون الحكم والمواعظ لليثي، ص ١٧٤؛ غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٢٦٨. [٥] . بحار الأنوار، ج١، ص٢٢٥.

[٦] . أمالي الطوسي، ص ٢٦١.



هذا الذي بين يديك أيها القارئ العزيز هو الجلسة الثالثة من سلسلة أبحاث سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي رضا بناهيان في شرح خطبة المتقين لأمير المؤمنين(ع) حيث ألقاها في جمع من طلاب وأساتذة الجامعة في مسجد جامعة طهران.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وحبيبنا أبي القاسم المصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

نظرة قصيرة أخرى إلى روائع هذه الخطبة

بودّي أن أشير مرة أخرى إلى إحدى خصائص هذه الخطبة المباركة كمدخل للبحث، ثم ننتقل إلى تكملة الأبحاث. من الضروري لكل إنسان أن يستعرض هذه الخطبة لما تتصف به من الشمولية بمستوى كبير. فأحيانا نحن نملك الحافز اللازم للصلاح، وكذلك نحظى برأس مال جيّد لنيل الصلاح، ولكن لم نُحص الفضائل ومصاديق هذا الصلاح كي لا تفوتنا واحدة منها. فمرور الفضائل معا حال كونها مجموعة منتظمة واحدة أمر ضروري لكل من أراد أن يحصل على هذه الفضائل. كما أن لهذه الخطبة إنجازات وآثارا أخرى سأشير إليها لاحقا إن شاء الله. في الواقع إن خطبة المتقين هي أمطار الفضائل، فكل من يقف تحت فيضها وتسقط قطرات فضائلها على فكره ومشاعره، تنبت أثمارا وأزهارا في وجوده.

خصائص السؤال الجيّد

لقد قال لي الإخوة إنه كان أثر أبحاث الجلسة الماضية هو أن نمتنع عن طرح السؤال تماما، وعليه فاقتضت الضرورة على أن نؤكد الجانب الإيجابي في السؤال ونذكر مواطن الحسن والصلاح في إبداء السؤال. مع أنّي لم أرفض في الجلسة الماضية السؤال الحسن، بل إنما قلت: لابدّ أن نتجنب السؤال السيئ. إن ما أردت أن أؤكد عليه هو أن نقوم بتقييم أسئلتنا ونبحث عن دوافعه وحوافزه حتى أن ندرس أسئلتنا من الناحية النفسية. وهذا ما قام به القرآن بشكل دقيق جدا. من أهم الفوارق الموجودة بين القرآن والكتب العلمية هو أن الكتب العلمية تطرح السؤال وتجيب عنه، بيد أن القرآن لا يطرح السؤال والجواب وحسب، بل يطرح دوافع طرح السؤال أيضا وبكل جرأة. فبأمكاننا أن نخوض في معرفة النفس عبر دراسة أسئلتنا والبحث عن جذورها ودوافعها. إما بالإضافة إلى هذه



النقاط التي ذكرناها في الجلسة الماضية، أردفنا نقطة أخرى وهي أنه لا داعي لطرح الكثير من الأسئلة الجيّدة، إذ إن «حسن السؤال نصف العلم».[١] إذن بإمكان الإنسان أن يحصل على النصف الباقي عبر الفكر والتأمل. ولهذا لا داعي لطرح السؤال الجيد والحسن أيضا في بعض الأحيان. ولكن اسمحوا لي في هذه الجلسة أن أثني على الأسئلة الحسنة في بضع جمل قصيرة كي نتدارك بها ما تركته الأبحاث السابقة من أثر سلبيّ ضدّ السؤال. وهي أن السؤال الجيّد ينشأ من مصدرين: فإما هو ناشئ من وحي العلم، وإما ناشئ من وحي الهمّ. ولا يمكن الحصول على الجواب اللازم بدونهما. فتارة تكون الأسئلة من وحي العلم وحسب وليس فيها شيء من الهمّ والألم. فلا أثر لها وللجواب الذي يحصل عليه الإنسان عبر طرحها ولا سيما في المجالات المعنوية. وتارة تصدر من وحي الهمّ والألم المجرد عن العلم. فلأضرب مثالا: اقترح عليّ بعض الإخوة قبل سنين أن أقيم هنا (في جامعة طهران) جلسات استشارية في المجالات المعنوية لطلاب قسم الطبيّة. فأقبل الطلاب يسجّلون لحجز الموعد لمدّة أسابيع، وفعلا بدأت الجلسات. أما اللطيف والملفت هو أن في تلك الأيام التي كنت بخدمة الطلاب كانت سبعين بالمئة من أسئلة الطلاب متشابهة ومن نمط واحد. كانت قد انطلقت أكثر أسئلتهم من همّ واحد ومشترك بلا أن يصاحبه علم مكمل لذاك الهمّ. إن همّهم الذي دفعهم لطرح أسئلتهم هو أنهم كانوا يريدون أن يعرفوا مدى شأنهم وقدرهم عند الله. فعلى سبيل المثال قال أحدهم: ارتكبت ذنبا وتبت بعد ذلك، فهل قد تقبلها الله أم لا؟ وقال الآخر: اتخذت برنامجا معنويا وتلكأت في تنفيذه فهل يقبلني ربي أم لا؟ وقال آخر: عزمت على القيام بالعمل الفلاني فهل سيجيبني الله أم لا؟ فكان همّهم هو أن يقضون على حالة الغموض في رؤية الله تجاههم. وأنا كنت أشير إلى نقطة في مقام الجواب وأشعر أن لو كانت هذه الحقيقة في علم الإخوة الطلاب لغضوا الطرف عن طرح أمثال هذه الأسئلة.

وهي أن الله سبحانه قد أحاط علاقته مع عباده بهالة من الغموض. فلماذا تريدون أن تزيلوا هذا الغموض برمته؟ ولماذا تعتبرون هذا الغموض عائقا في مسار حركتهم المعنوية؟ ولماذا ترون هذا الغموض دليلا على عدم رضا الله عنكم؟ كما سألني صبيحة اليوم أحد الطلاب وقال: أحيانا أفقد الحال المعنوي، وهذا ما يحكي عن عدم رضا الله عني... . فقلت له: لماذا تعتقد بأنك يجب أن تشعر برضا الله عنك وتلمس ذلك؟ فقال لي: لا أريد أن أشعر به من الناحية المادية، بل أريد أن أشعر بذلك عبر حالي المعنوي وروحيتي وبهجتي في العبادة. فقلت له: إنك تأتي بكلمة «المعنوية» ولكنك تريد أن تشعر به من الناحية النفسية والوجدانيّة. بينما يجب أن نفرّق بين المعنى والمسائل المعنوية وبين الحالات والمشاعر النفسيّة. فلا داعي لأن يشعر الإنسان برضا الله. وهنا يأتي دور الإيمان بالغيب. وهنا يأتي دور العقل. ولكنه استغرب هذا الكلام! وفي المقابل إذا كان السؤال منطلقا من العلم فحسب دون أن يصاحبه همّ وغمّ، عند ذلك يتلاعب السائل بالجواب، أو لن يوفّق للحصول على الجواب الصحيح، وإذا حصل على الجواب الصحيح ولم يتلاعب به ولم يجادل فيه، لن يطبّقه ولن يعمل بمقتضاه. إذن لابدّ لأي سؤال حسن وجميل أن يكون نابعا من مصدري العلم والهمّ. فهذه أسئلة جيدة فإن طرحت في محلها، يكون ذلك علامة على أن الجواب في الطريق وسيصل للسائل إن شاء الله. كما لا يخفى أن التطور المعنوي لكل شخص مرهون بمستوى الأسئلة التي تتبلور عنده عن علم وهمّ في مسار حركته التكاملية.

شهود و إدراك الجمال و مستلزماته

لقد كان سؤال همام عن وصف المتقين لينظر إليهم ويشاهدهم ولا بأس أن نقف قليلا عند موضوع «المشاهدة» في هذا المقام. إن المشاهدة هي حاجة حقيقة وليست آلية. إذ ليس المقصود من النظر إلى الزهرة هو شراؤها. ولكن عادتنا ومقتضى حياتنا الدنيوية هي أننا عندما ننظر إلى الوردة ننظر إليها لنشتريها ثم لنضعها في البيت في سبيل أن

نتفاخر بها. وقلّ ما نجد إنسانا يشتري الوردة لينظر إليها ولا يقصد وراء النظر أية غاية أخرى. إن النظر لدى أهل المعرفة هي الغاية بحد ذاتها وليست مقدمة لشيء آخر.

إن المشاهدة بحاجة إلى إدراك الجمال في بداية الأمر، وبعد ذلك تحتاج إلى شعور روحي. إن إدراك الجمال وطلب الجمال غير متوفر لدى كثير من الناس. حيث إن علماء النفس لا يعتبرون النزعة إلى الجمال في عداد الاحتياجات الأولى لدى الإنسان. فهم يقسمون الحاجات إلى أربعة أقسام: على رأس قائمة احتياجات الإنسان هي الحاجات الحياتية التي تؤمن حياته وتقيه من الموت والهلاك. ثم تأتي في الدرجة الثانية الحاجة إلى اللذات، وبعد ذلك نصل إلى الحاجة إلى العاطفة والمشاعر. ويعتبرون آخر احتياجات الإنسان هي حاجته إلى الجمال. ولكن ترى بعض الناس قد شغفوا بحبّ الجمال قبل أن تتوفر لديهم احتياجاتهم الأولى. إن سألني أحد عن سبب تديني أقل له: أنا التزم بديني لكي لا أذوق عذاب القبر، ولا أدخل نار جهنّم. يعني قد انطلقت في الالتزام بالدين من احتياجاتي الأولى ولم ارتفع للمستوى الذي أقول فيه قد اضطرّني إلى الالتزام بالدين جمال الله وحب مشاهدة المزيد من جماله. إن الله سبحانه قد نهى عن الغيبة بذكر قبحها لا أضرارها. حيث قد صورّها كعمل قبيح جدا يشمئز منه الإنسان. ومن المهمّ أن نمتنع عن الغيبة لقبحها وحسب، وإلا فنستطيع أن نمتنع عنها فرارا من نار جهنّم. فإن امتنع أحد عن الغيبة لقبحها فقط، هذا إنسان يحبّ الجمال، والذي ينتهي عنها لخوفه من نار جهنّم فهو إنسان نفعي. ومقام حبّ الجمال أسمى من مقام النفعيّة بلا ريب. ولعله لهذا السبب قد دعانا الإسلام إلى تجنب الشهوات. إذ أن الشهوات تعمي بصر الإنسان لرؤية مظاهر الجمال الإنساني فيصبح الإنسان بعد هذا العمي ينتهز أنواع الجمال في سبيل تلبية شهواته. أما الجمال الإنساني فهو ذو معان عميقة جدا حتى الجمال المادي السطحي فضلا عن الجمال المعنوي الذي هو أصل الجمال ورأسه وذو عمق واسع جدا.

وما يجري الآن في الأفلام مع الأسف هو انتهاز واستغلال الجمال في سبيل مصالح ومنافع أخس منه رتبة وأدون منه ثمنا. إن طلب المشاهدة هو في سبيل أن يرى الإنسان ذاك الجمال ويتمتع به. والتمتع بالجمال يتم بمرحلتين: الأولى هي إدراكه والثانية هو عيشه والشعور به. يجب ان تعيش جمال الشيء الجميل. المشكلة كل المشكلة هي في الشعور بالجمال ولمس الجمال المعنوي، وإلا ففي مرتبة العلم والإدراك لا يعوزنا شيء. نحن لا نحتاج في سبيل إدراك جمال الله والعلم بجماله أكثر من قوله: «قل هو الله أحد». ولكن ما يعوزنا هو الإحساس والشعور بهذا الجمال. نحن بحاجة إلى ما يجعلنا نشعر ونلمس جمال ما نعلمه من الله عز وجل. طبعا لا أنكر أثر بعض الكلمات اللطيفة والبديعة في مزق بعض الحجب الرقيقة ما قد تهزّ قلب الإنسان وتمهّده لتذوق بعض أنواع الجمال، ولكن لا تنحل المشكلة بشكل عام بإلقاء واستماع المحاضرات. لابدّ من تفريغ القلب لذلك. كان أحد الشباب الجامعيين يتلو القرآن بجوار الكعبة فقال لي: قد اعتراني شعور أثناء تلاوتي لا أستطيع وصفه، وإن وصفته لا يدركه أحد. قال: أثناء ما كنت أتلو القرآن وجعت رجلاي إذ كنت أتلوه بلا وقفة لساعة أو ساعتين. فبينا أنا أتلو القرآن وإذا اعتراني شعور جعلني أبكي إلى الصبح. فقلت له لماذا؟ قال: رأيت فجأة كم أن الله قد تكلم عني وشؤوني مع نبيّه في القرآن، وكم قد صرف من وقته لذلك. فكدت أهلك من البكاء من كوني موجودا مهما لدى الله سبحانه ولهذا قد أنزل من أجلي هذا القرآن. إن العلم هو الخطوة الأولى لإدراك الجمال، وما يحدث بعده هو الشعور. وهذا ما يقتضي شرح الصدر لإدراك جمال الله وأسمائه. كتب لي شابّ آخر وقال لي قد أهلكتني عبارة واحدة من عبارات دعاء الجوشن الكبير في جلسة إحيائنا في ليلة القدر، ما جعلتني أجهش بالبكاء إلى صباح تلك الليلة وهي عبارة «يا ذا العهد والوفاء». قال: شعرت فجأة بهذه الحقيقة وهي أنه ليس لأحد في هذه الدنيا أن يعطيني كلاما ويعاهدني على شيء، إذ ليس بيد أحد شيء ولا يوجد ذو وفاء في هذا العالم. فالشخص



الوحيد الذي عهد ويوفي بعهده هو الله سبحانه، إذ شاهدت عهده ووفاءه. فإذا طالبتم هذا الشابّ أن يشرح لكم هذه العبارة لتدركوا جمالها وحرارتها فلا يمكن. فلا تعالج المشكلة بالشرح، بل نحن بحاجة إلى عملية تشريح في صدورنا وقلوبنا ليتمكن القلب من مشاهدة هذا الجمال. في سبيل كسب هذا الشعور وتعزيزه الذي يجعل الجمال على رأس حاجات الإنسان ويمكنه من إدراك جمال الله، لابدّ اجتياز بعض المقدمات والمراحل.

١ـ الابتعاد عن القبائح

فعلى سبيل المثال لابدّ للإنسان أن يغضّ عين قلبه عن المشاهد غير الجميلة في العالم. لابدّ أن يكفّ عن إنتاج ما ليس بجميل. كيف يريد الإنسان أن يشعر بجمال الله وهو ينتج غير الجميل بأعماله وصفاته. فإذا كان الإنسان ينتج الأفعال القبيحة وغير الجميلة، عند ذلك تعجز روحه عن إدراك مصاديق الجمال في هذا العالم. فلا يشعر حينئذ بجمال الله. يجب أن يبتعد الإنسان عن الغيبة والكذب وباقي السيئات والقبائح حتى تتمهد روحه لإدراك الجمال. من مراقبات العطّار أنه لا يشتمّ أية رائحة، حتى يحافظ على شامته وذوقها. ومن هذا المنطلق تجدون الشيخ بهجت(رض) ما كان ينظر إلى كل شخص ولا يكلم كل إنسان، حيث كان يراقب نوافذ قلبه ولا سيما عينه وسمعه. فليس لنا بد من هذه المراقبات. قال لي أحد الشباب: نحن في أجواء هذه المدينة، فنتلوث بأشكال المشاهد والصور والأحاديث شئنا أم أبينا، فما نفعل؟ قلت له: اقرأ القرآن ليلا، وطهر أوساخ قلبك بجمال آيات القرآن. وهذا أمر لابدّ منه. وبالتأكيد ليست الأفعال القبيحة هي كلّ ما ينبغي الإنسان أن يجتنبه، فلابدّ من الاجتناب عن الأفكار القبيحة والرغبات القبيحة كالحقد على الآخرين. فلنحاول أن نبعد كل هذه الأمور عن قلبنا. ونفرّغه لإدراك الجمال. فإن الهجرة إلى الله بدافع الجمال لها طعم آخر.

٢ـ مصاحبة أهل الجمال

الخطوة الأخرى التي لابدّ أن نخطوها في هذا المسار هو مصاحبة أهل الجمال. إن أئمتنا المعصومين هم «وجه الله»، فلنصاحبهم ونستأنس بهم، فعند ذلك تتغير ذائقتنا ونستأنس حينها بجمالهم.

٣ـ الخلوة مع الطبيعة

كما ينبغي أن لا نمرّ مرور الكرام عن جمال الطبيعة. حيث يعتبر الفنانون بأجمعهم أن هذا الجمال الطبيعي هو مصدر إدراك الجمال بشكل عام. فلتكن لكم خلوة مع الطبيعة، مع الليل ونجومه، مع الصحاري والجبال والبحار. فإن الخلوة مع الطبيعة مستحسن جدا. أنا أعتقد أن ما قاله أمير المؤمنين(ع) أن: «النَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ يُسْرٌ؛ صحفيفة الإمام الرضا(ع)، ص٧٢»، لم يكن بغرض صحة الجسم وحسب. واستبعد أن تكون بعض إرشادات أمير المؤمنين(ع) ذات بعد واحد، ولا يمكن افتراض الحياة ذات بعد واحد. عندما يوصي أمير المؤمنين بهذه التوصية فلابدّ أن يكون في هذا النظر أثر خاص على روح الإنسان. على كل نحن بحاجة إلى مراقبة عامة في سبيل تطهير القلب من الأوساخ والقبائح لكي نتمكن من إدراك الجمال المعنوي في هذا العالم.

[١] . بحار الأنوار، ج١، ص٢٢٤.